عز الدين التنوخى
خطوط رئيسية فى تاريخ حياته ودراسة أدبه

للدكتور شكرى فيصل

أستاذ كرسى الأدب العربى بجامعة دمشق
ومن الأساتذة المحاضرين فى المعهد

كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى حين أخذت كثرة من الناس فى أسواق دمشق وأحيائها تتهامس فيما بينها، تتحدث عن شاب ممتلىء الجسم، تام التقاطيع، عريض الجبهة، إلى القصر أقرب ... عاد من القاهرة – بلد الأزهر الشريف – بعد غيبة عن وطنه، يدخل المسجد الجامع فى شىء من اندفاع، ويرتدى بعض الملابس الحديثة، ويتصدر وراء « رحلاية » إلى جانب هذه السارية من سوارى المسجد قرب باب الكلاسة، أو إلى جانب هذا الباب أو ذاك من أبواب المسجد ومحاريبه .. يتحدث إلى الناس، يعظهم .. ليس له من سمات الواعظين ضخامة جثة ولا إسباغ ثوب ... ليس فى شعره كثير من بياض أو قليل، وليس على رأسه عمامة ضخمة ولا على أكتافه عباءة ضافية ولا تلبسه جبة عريضة سوداء ... ولا يمشى الهوينا، ولا يتكلف السعى ولا الحديث، وإنما ينطلق فيهما انطلاقاً ... فيحدث الناس حديث الدين والأخلاق ومحاربة البدع، فى كثير من الوضوح والصراحة، وفى شىء غير قليل من الانطلاق والتدفق.

ومالبث همس الناس هذا أن آل إلى نبأ يتناقلونه، وجديد يخوضون فيه، وعلامة من العلامات يقفون عندها ... يقف أكثرهم عندها معجباً بها، راضياً عنها، متمنياً لهذا الميدان من ميادين الوعظ والإقراء والتدريس أن يداخله جيل جديد من هذه الأجيال الناشئة، تلتقى بالأجيال القديمة وتتجاذب معها الفكر والرأى، حتى يكون للناس من أمور دينهم ودنياهم موقف واضح معروف لاينبهم عليهم فيه أمر، ولا يلتبس عليهم فيه موضوع ... وحتى لاينقطع ما بين قديم الناس

وحديثهم ؛ ولا يتفكك مابين حاضرهم وماضيهم ، وحتى لايقع هذا الانشطار المخيف العنيف الذى يهدد الوجود ؛ وجود الأفراد ، كما يهدد وجود الجماعات سواء بسواء ؛ بالفناء أو بالإفناء .

وهكذا مضى هذا الشاب الذى عرف الأزهر وتتلمذ على شيوخه وشهد حلقاته واستمع إلى أساطينه وأكل بلاط المسجد من أقدامه وهو يمشى هنا أو هنالك ، فى هذا الروق أو ذاك ، يدوى بالقرآن الكريم مع هذه الكوكبات التى كانت تدوى به : تقرؤه أو تحفظه ... أو يردد بعض هذه المتون، أو يجلس إلى حلقة من حلقات هؤلاء الشيوخ الأجلة الذين كانوا يستنون للحياة الإسلامية طرقها ، ويفتحون السبل أمامها ، ويكشفون الغبار المتراكم عن تراثها ويشدون من عزماتها ، ويبصرونها بمواطن الأصالة فيها .

وكان هذا الشاب الذى نشأته بعض أحياء دمشق ، قد عرج فى طريق هجرته على فلسطين . . ولعلها كانت هجرة حائرة بين الثقافة والتجارة ... مر بيافا فأقام فيها — وهل أحلى من الإقامة فى يافا ؟ هل أحلى من رملتها الناعمة وبساتينها العبقة وبحرها الأزرق ! ودرس الفرنسية فى بعض مدارسها ... فاجتمع له فى كل ذلك : من المدينة الأصيلة التى نشأ فيها ، ومن الهجرة المتفتحة التى عاناها ، ومن الأزهر المنير الشريف الذى صقله فأحسن صقاله — هذا التكوين الجديد الذى يتميز أشد تميز أنه تكوين حى متطلع ... والتقى فى نفسه هذا المزاج المحدث وهو مزاج أبرز مافيه أنه مزاج أصيل دؤوب ، متفتح ... يريد أن يملأ يديه مما حوله ويريد أن يشق بيديه — بكلتا يديه — طريق الجماعة الجديدة ، وأن يكون له فيها شأن ، لا أن يكون منها غير ذى شأن .

كان كل شىء يأخذ طريقه فى حياة هذا الشاب إلى أن يتكون . . ولكن أبعاده لم تكن قد استقرت بعد . . كان هنالك تطلع ، وكان هنالك نباهة ، وكانت هنالك هذه الهالة التى أخذت تنعقد حوله أو هذه الهالات التى أخذت تضىء من حوله .. وكان هنالك فى دنياه كل هذه الآفاق : العلم ، والدراسة ، واللغة الأجنبية بما يكون من إثارتها ودفعها ، والأزهر والقاهرة وما كان يضطرم فيهما وينبعث عنهما وما تلهج به الصحافة والمجالس والحلقات . . وكان

وراء هـذه المشاهد المتماوجة فى دنيـا هذا الفتى خلفية عريضة لعلها أن تكون حجر الأساس من هـذا البناء أو من آساسه الأولى تلك هى هذه الموجة التى أخذت تعم بلاد الشام كلها ، من طور سيناء إلى طوروس ، تثير عند الناس إحساسهم بذواتهم ، وتفجر أحياناً هذه الأحاسيس نقداً أو ثورة ، صراخاً أو رجاء . . وتلونه شعراً أو كتابة حيناً ، ووعظاً ودرساً وإثارة حيناً آخر ، وجمعيات وأحزاباً حيناً ثالثاً ... كانت من هذه الموجات التى تضطرم أحياناً حتى لتطلم الصخر فيفنيها الصخر ، أو تنساب على الرمل هادئة لينة فتداعب الرمل وتجرجر بعض حياته ... موجات من شكوى الحكم والإحساس بالظلم ، والدعوة إلى الإصلاح ، والنفرة من هذا الذى كانت تمارسه السلطات العثمانية من ميز أو إرهاق أو إحراج .

وكان هـذا الشاب أحد الذين عانوا هـذه التحربة . . مر بها واكتوى بلذعها ، وامتد أفقه السياسى وراء الاستكانة للواقع ، محاولا أن يتخطاه إلى وجود جديد تتضح معالمه عنده كما لا تتضح عند الكثرة التى أحست به آنذاك ، ولا تستطيع أن تميز فيه معنى النقد من معنى الثورة ، ولامعنى الاصلاح من معنى الخروج ، ولا معنى الانشقاق عن الترك ولا معنى البقاء معهم . . لأنه مزيج مختلط من كل ذلك .. لكل إنسان فيـه نصيب على قدر ما يكون من اضطرام هذه العوامل فى نفسه .

وكذلك استقام عود هذا الشاب إنساناً ، صفته التى يمكن أن تطلق عليـه وأن تكون مجمع صفاته الأخرى أنه مثقف قدر ما كانت تتيح الحياة آنذاك من ثقافة .. يعرف الدنيـا من حوله ويعرف نفسه . . يلمح الآفاق الجـديدة ويتطلع إليها . . يعرف أصالة ثقافته ويستطيع أن يدافع عنها ويحبها عن وعى لها . ويرجو أن يكون لها فى نفوس الناس مثل الذى لها فى نفسه من أثر يدفع إلى ألوان من السلوك ! تتراوح بين أن يتعود المرء فتح عينيه حتى يرى بهما ما يجب أن يرى وبين أن يهز سلاحه بيده يضرب به ما يجب حتى يبتر .. ألوان من السلوك بين النقد وبين الثورة ، بين قولة « لا » فى همس لا يسمعه أحد أو لا يكاد ، وبين قولة « لا » بملء الفم ولو قادت إلى حبل المشنقة .

من كل هذه العناصر المتداخلة المتكاملة تكون هذا المزاج الذى عرف بعد باسم « أبى قيس » وعرفه الناس باسم عز الدين علم الدين، أو عز الدين التنوخى، وعرفه قلة باسم العز التنوخى أو العز اللخمى . . وقرأوا له ، وقرأوا عليه ، وانتفعوا بعلمه .

فكيف استطاع هذا المزاج أن يتمثل فى نطاق الحياة الأدبية ؟

* * *

من المؤكد أن الاتجاه إلى الأدب بالمعنى العام لهذه اللفظة ، أو إن شئنا فى تعبير آخر ، الاتجاه إلى الثقافة — بآفاق الثقافة التى كانت آنذاك — كان هو الطريق التى استأثرت باختيارات أكثر الناس « الناس — القادة » فى تلك الفترة من حياتنا فى هذا الجزء من الوطن العربى .

كان هنالك أحد طريقين فى سبيل النهضة : الخروج على السلطان العثمانى بغية إطلاق القوى النفسية والفكرية للجماعة العربية ، وتحطيم القيود التى كانت تكبلها .. ذاك أحد الطريقين .. والطريق الآخر : حركة إحياء عربية تتناول التراث العربى : لغته وأدبه وعلمه ومظاهره الحضارية الأخرى ، كما تتناول الخصائص العربية كلها تعريفاً بها ، ونشراً لها ، وتمكيناً لها فى نفوس الجماعة ، وإعادة بناء النفس العربية السليمة الصافية من خلال جهد ثقافى ونفسى وتعليمى طويل .

فى الطريق الأولى كانت هنالك مخاطر ومخاوف هى هذه المخاطر التى تتصل بالسياسة والسلطان والحكم والتى تتجسد ببطش الجيش التركى القائم .

وفى الطريق الأخرى كانت هنالك هذه البقيا على التراث المشترك بين العرب والعثمانيين ، وكان هنالك تأكيد على الروابط التى لا يستطيع الأتراك الحقيقيون أن يتنكروا لها ولا يستطيع العرب العروبيون أن يتخففوا منها .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

ومن هنا انشعبت الحركات فى الوطن العربى فى هاتين الوجهتين : وجهة الثورة ، أو وجهة الإصلاح فى بعض معانى الكلمة .. ووجهة إحياء الحياة العربية حتى تكون قوة فى وجه الاستعلاء التركى .

ولكن هاتين الوجهتين لم تمضيا متعارضتين وإنما مضتا متكاملتين : الذين عملوا على الثورة أفادوا من عمل الإحياء العربى ، والذين عملوا على الإحياء — أو بعضهم — انتهوا بعد ذلك فى ظروف سياسية لا ندرى مدى وضوحها إلى الخروج والثورة .. ثم كان ما كان .

ويبدو أن التنوخى كان من الذين أخذوا بهذين الاتجاهين .. كان فى الجمعية القحطانية ، ومارس النشاط السياسى خلال الحرب ، وقاده ذلك إلى أن يلتجىء إلى العراق ثم إلى الحجاز .. وكان بعد ذلك يتجه إلى الثقافة والإحياء .. ومن هنا كانت صورته صورة هذا الشاب الذى دخل المسجد بشىء من ألبسة حديثة يعظ الناس ويعلمهم .. ومن هنا أخذت الصورة بعد ذلك أبعادها المختلفة فإذا هو يخرج إلى الحجاز وإذا هو يعود إلى الشام وإذا هو فى ملك فيصل فى ٨ آذار لبنة من اللبنات .

ومن هنا كذلك كان التنوخى أحد ثلاثة وقع عليهم اختيار لجنة أهلية للبعثات .. ذلك أن الإحساس بالأثر الثقافى كان فيما يبدو إحساساً عاماً . دفع جماعة من المتنورين — إن صح هذا الوصف — إلى أن يفكروا فى أمر البعثات الدراسية ما دامت السلطات لا تفكر فيها أو لا تحسن القيام عليها .. ولذلك اختارت لجنة أهلية — كما كانوا يصفونها — ثلاثة من النابهين ليدرسوا فى أوربا : المرحوم الدكتور عبد الغنى الشهبندر الذى عاد فأقام فى بيروت . والمرحوم الأستاذ عز الدين علم الدين الذى عاد إلى دمشق ، والمرحوم الأستاذ الجليل الأمير مصطفى الشهابى الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية بدمشق .

ومن عجب ، أو كذلك يبدو ، أن يدرس الشهابى والتنوخى الزراعة فى فرنسا فى « غرينوبل » ، ثم يعودان لا للزراعة وحدها ، ولكنهما يعودان لكل هذه المشاركة الشاملة أو كالشاملة فى أكثر نواحى الفكر العربى . . فيسهم الشهابى فى الحركة الوطنية والحركة الفكرية والحركة اللغوية والعلمية إلى جانب إسهامه فى الحركة الإدارية كواحد من كبار الموظفين . . ويسهم التنوخى فى نحو من ذلك فى الحركة اللغوية وفى الأدبية وفى ألوان من النشاط التربوى والتعليمى والثقافى .

إن هذا الإشراك بين الاختصاص الأصيل وبين متطلعات الحياة الجديدة التى كانت كل ناحية منها فى حاجة إلى جهود أبنائها لم يكن إشراك كفر قدر ما كان إشراك إيمان . . كان تعبيراً عن هذا التلازم الأبدى بين الإحياء العربى من حيث هو إحياء للإنسان وبين الإحياء الثقافى من حيث هو إحياء للجماعة وفكرها وشخصيتها ، وشق لدروبها . . كان تجسيداً لهذه الصلة التى لا تنفصم بين اللغة والأدب بمعناه الواسع وبين سير الحياة بالجماعة العربية المتطلعة . . كان العمل السياسى يتسربل بالأدب ، وكان الأدب مصطبغاً بالسياسة ، وكانت الثقافة إسهاماً فى الإحياء ، وكانت اللغة مصدر دعم الشخصية . . كان هنالك هذا التكامل والتداخل الذى لم يسمح بالفصل والتخصيص لسببين : أولهما طبيعة الحركة من حيث هى تكامل ، والآخر قلة هؤلاء المثقفين الذين يستطيعون إدراك طبيعة المرحلة الجديدة والقيام بأعبائها .

فلننظر كيف كان الوجه الأدبى لحياة التنوخى رحمه الله .

* * *

لقد رأينا بذرته الأولى فى الثقافة العامة التى وصلت إليه أو وصل إليها فى كتاتيب دمشق ومساجدها . . ثم رأينا ساقاً من سوقه يتشقق بعد اتصاله بالأزهر ودراسته فيه ، فيكون منه هذا الإنسان الذى يتصدى للتدريس والوعظ .

ولكننا لا نكاد نمضى مع حياة التنوخى حتى نجد شيئاً من تطعيم لهذه الشجرة التى توشك أن تتفتح وأن تكون لها ظلال وأغصان . . هذا التطعيم كان فى هذه الدراسة الجامعية التى دفع إليها أو اندفع فيها حين درس الزراعة فى « غرينوبل » . . فلما عاد كان هذا الإنسان الذى يتمازج فى أعماقه القديم والجديد ، وتتجاوز أو تتفاعل فى حياته الثقافة المحدثة والتراث القديم ، ويلتقى عليه هذان الأفقان : أفق يضع يده عليه وأفق يستشرفه ويتطلع إليه .

ومع الدولة العربية الأولى ، دولة فيصل — ٨ آذار ، تبدأ مرحلة أدبية جديدة فى حياة التنوخى . . مرحلة هدفها أن تجعل من اللغة العربية نسغ الحياة وماءها ، فإذا هو يعمل فى لجنة من هذه اللجان التى آلت أن تكون بعد مجمعاً علمياً ، وإذا هو — بهذه المعنى — واحد من الأعمدة التى قام عليها هذا المجمع العتيد .

فى الإنتاج الأدبى للتنوخى فى هـذه المرحلة نستطيع أن نعود إلى التفرقة بين الأدب بمعناه العام وبين الأدب بمعناه الخاص .. فى الأدب العام — الذى كان الأخذ من كل ناحية بطرف — لم يكن أحد أقدر على تجسيد هذا المعنى فى هذه الفترة الزمنية من الأستاذ التنوخى رحمه الله .. فقد استطاع أن يتمثل هذا المزيج الغريب — أو الذى يبدو لنا الآن غريباً — من دراسة الزراعة وترجمة كتب الفيزياء، وتأليف كتب الإنشاء ، وجمع مختارات « المستظهر » والعناية بأدب الأطفال ومطالعاتهم متمثلا بترجمة « قلب الطفل » كما استطاع أن يجمع بين العمل الإدارى والعمل العلمى ، والعمـل التدريسى والعمل الحر ، والبحث اللغوى والدراسات الأدبية ، وإنشاء الشعر وإنشاده ، والإسهام فى مختلف مظاهر الحياة الفكرية والأدبية ، والمشاركة فى المجلات المختلفة : الرابطة الأدبية ، والعروس ، ومجلة المجتمع العلمى العربى ، ومجلة الثقافة « الشامية » .. ولم يكن ذلك كله فى الشام وحدها ولكنه كان فى العراق أول الأمر ثم فى الشـام بعد حين استقر به المقام .

أما عن الأدب بمعناه الخاص فنحن نستطيع أن نلمح نتاج التنوخى متشعباً فى هذين المجريين : القصائد الشعرية ، والأبحاث الأدبية .

فأما عن القصائد الشعرية فقد وجدتنى ، وأنا أنبش مجلاتنا الأدبية فى الشام ، أمام مجموعة من هذه القصائد ، بعضها منشور وبعضها نشرت منه مختارات .. بعضها تأبين وبعضها تكريم .. تكريم محمد الهراوى والأمير شكيب ، وتأبين الشيخ بدر الدين الحسينى والألوسى .. وقصيدته فى الثورة السورية ، وقصيدته الأخرى فى المتنبى .. ولعل هنالك قصائد غيرها لم يقدر لى أن أتعرف إليها .

وليس فى وسعى فى كلمـة قصيرة ، هدفها تخطيط الدراسـة ، أن أنظر فى تقييم هذا النتـاج الشعرى ، ولكننا نملك دون تردد أن نقول : إنه شعر إلى الجزالة أقرب .. ويبدو أن المرحوم التنوخى كان بحكم ثقافته اللغوية الواسعة ، واطلاعه العريض على التراث القديم ، متأثراً بهذا التراث ، مائلا إليه ، منصرفاً عن هذه الألوان المحدثة التى تميل إلى الرقة .. وواضح أننا لا نتحدث عن الشعر الحر فلم يكن لهذا الشعر إلى هذا الجيل سبيل .

وترتفع بعض المقاطع أو بعض الأبيات حتى لتقارب الذروة ؛ وإنما يرفعها سبكها المحكم وألفاظها الجزلة والتراث المتجمع خلفها ، وموسيقى من هذه الموسيقى التى تتأتى عن اختيار الألفاظ والملاءمة بينها فى شىء من توازن أو سجع ، أو فى شىء من طباق ومقابلة .

وتطول بعض القصائد فيكون طولها — فيما أحسب — أقرب إلى الإملال .

وقد يدفع هذا الطول إلى شىء من تنوع الموضوعات وتزاحمها أو إلى كثير من ذلك ، حتى تغيب هوية القصيدة أحياناً وتنعدم فيها وحدة الموضوع فإذا هى مزيج من أغراض شتى .

ونستطيع أن نتبين رأى التنوخى فى الشعر من نحو غير مباشر إذا نحن توقفنا عند دراستين : أولاهما كتبها عن شوقى — وإنها لدراسة تجمع بين القيمة والإطراف — وأعدها للمهرجان الذى أقامه المجمع العلمى العربى ونشرت فى مجلته فى العدد الثانى من المجلد الثالث عشر .

والأخرى دراسة كتبها عن مخطوط لأحد شعراء البحرين بعنوان : الشعر فى فاتحة القرن الحادى عشر .

وفى كلتا الدارستين نثر المرحوم التنوخى — على عادته — شيئاً من الحديث عن نفسه أحياناً ، وكثيراً من آرائه أحياناً أخرى ، وهى كلها تكشف عن روح ناقد يتمثل مايقرؤه تمثلا طيباً ويقف عنده مواقف جياداً بالتعليق أو النقد أو الموازنة أو الحكم .

* * *

لقد تحدثت عن قصائد التنوخى ولم أتحدث عن أبيات متفرقات له كثيرة شائعة بعضها مدون مسطور ، وبعضها متناقل محفوظ يرويه أصدقاؤه ومعارفه من الذين كانوا على صلة به .

بعض هذه الأبيات كان ذا غرض تعليمى وبعضها كان غرضه إلى الإطراف والنكتة وتزجية الوقت . وما كان أقرب الأستاذ التنوخى إلى الإطراف وأشد

حرصه عليه . . تعرفه جاداً ينفق الساعات الطوال وراء منضدته فى المجمع حتى إذا انتهى الوقت لم يشعر بانتهائه إلا أن يمر به صديق له أو زميل فى المجمع فيضع يده فى يده . ولكنه إلى هذا الجد الجاد كان حين يلتقى بإخوانه يلقاهم منشرح الصدر طلق اللسان بالحديث الخفيف أو النكتة العابرة . . وكان يحرص على أن يصوغ ذلك شعراً ، وكانت قدرته على إحكام النظم وضبط الوزن تتيح له فى ذلك ما لا يتاح لغيره . . فإذا البيت والبيتان والأبيات الثلاثة تنساب فى الجلسة فتكون كما تكون الغمامة فى يوم قائظ تنشر الظل وتبعث النشوة ...

إن الظروف التى كانت توضع فيها أوراق البكالوريا وتتعاورها اللجان كانت تمتلىء بهذا اللون من الشعر : بيت يقوله أستاذ وبيت يقوله أستاذ آخر فيكون فى ذلك بعض التسرية عما يجدون من عناء التصحيح . . وإنه لعناء يشبه الشوق لا يعرفه إلا من يكابده ولا يدركه إلا من يعانيه(١) .

أما الأبيات الأخرى ذات الغرض التعليمى فتلك هى الأبيات التى حلى بها كتابه (تهذيب الإيضاح) الذى حققه وشرحه فى ثلاثة أجزاء(٢) حين أسند إليه تدريس البلاغة فى كلية الآداب .

وحين تعرض الكتاب تجد عجباً من العجب . . فقد كان الأستاذ المرحوم يورد الأمثلة من القرآن والحديث والشعر ، ثم يعقب بمثال يصنعه هو ولكنه لا يسنده إليه وإنما يقول : ومما روينا . . أو يقول : وللعز التنوخى . . أو للعز اللخمى .. أو الغواص التنوخى .

ويظهر أن هذه الأمثلة راقته آخر الأمر حتى مضى فى إصدار الأجزاء

---

(١) من أمثلة ذلك هذان البيتان . كان الأستاذ التنوخى فى نزهة إخوانية من هذه النزهات التى يتحرر فيها المرء من قيود الحياة الرتيبة وتقاليدها . . فلجأ آخر الطعام إلى ما يلجأ إليه الطاعمون من غسل الآنية ، وقصد إلى ماء بعيد فى منحدر ثم عاد مصعداً وهو يتمثل :

غسلت طناجراً وجلوت صحنا وملعقة فكانت كالمرايا
وهأنا قائل فى يوم قيظ أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

(٢) تهذيب الإيضاح فى ثلاثة أجزاء : المعانى والبيان والبديع ، من مطبوعات الجامعة السورية ١٩٤٩ .

الأخرى من الكتاب فإذا هو يسجل هذا الهامش الطريف الذى أنقله من آخر التدريبات على التشبيه :

يقول : وللعز التنوخى يصف الدفلى وزهرها الأحمر البهيج(١) .

وبعض النـــاس مخبرهم قبيـح ومنظرهم — كما تهوى — بهيج
كدفلى راع منظرها ، ولـكن لها لون وليس لهـا أريج

ويقول فى الحاشية : وهو شـارح هذا الكتـاب وماكنا نريد عزو شىء من الشعر لنا فى الجزئين الأول والثالث فأوردناه باسم الغواص التنوخى أو اللخمى وكل ما قلناه إنه من مروياتنا فهو لنا ولولا ملامة الأصـدقاء ما عدلنا فى هذا الجزء عن التلويح إلى التصريح .

ماذا وراء هذا الصنيع ؟ إنه قصد إلى الغرض التعليمى لا شك ، ومحاولة لصياغة المثل أقرب ما يكون إلى القاعدة .. إن ذلك أثر من آثار غنى الرواية عند التنوخى : يقرأ الأمثلة الكثيرة ثم لا يلبث أن ينفجر بالمثال الجديد وبينه وبين الأمثلة السابقات صلات ؛ صلات قربى ، وتماثل ، وتناغم ، ولكنه يظل بعيداً عن الاحتذاء والتقليد .

* * *

ولكن وراء هـذه القصائد التى عددتها أو عددت شيئاً منها ، ووراء هذه الأبيات التعليمية أو المطرفة شيئاً آخر ، ذلك هو هذا الشعر الذى كان التنوخى يعنى بترجمته عن الفرنسية وكان يحرص على أن يصوغ الترجمـة شـعراً .. وإنا لنقع من ذلك على قصيدتين متباعدتين :

أولاهما قديمة تعود أو يعود نشرها إلى سـنة ١٩٢١ وقد نشرت فى مجـلة الرابطة الأدبية التى كانت تصدر فى دمشق — ومن حولها ومن ورائها عديد من علمائنا وأدبائنا كالمرحوم الأستاذ الرئيس خليل مردم ، والأستاذ سليم الجندى ، ومحمد الشريقى ، وأحمد شاكر الكرمى ، وزكى الخطيب ، وإخوانهم — للشاعر الفرنسى فيكتور هوغو بعنوان : (حينما أهل الطفل Lorsque l'enfant parait) .

(١) تهذيب الإيضاح ، ج ٢ ص ٨٤

وقد نشرتها الرابطة مقرونة إلى قصيدة أخرى للشاعر الشريقى وقدمت لها بهذه المقدمة التى أحب أن أثبت نصها : « هاتان قصيدتان إحداهما غربية لفحل من فحول شعراء الفرنجة ، وهو فيكتور هوغو ، والأخرى شرقية لأخ من إخوان الرابطة وفتى من فتيان الشعر فى هذه البلاد وهو محمد الشريقى طرق كل منهما موضوع الطفل فأبدع ، وقد حملنا ما بين القصيدتين من صلة النسب على نشرهما معاً ليظهر للناس مبلغ الفرق فى أساليب التفكير وصوغ المعانى الطارئة على الخاطر بين شاعر غربى أقلته بلاد الفال الجميلة وشاعر شرقى أظلته سماء سورية الصافية »(١) .

أما القصيدة الثانية فقد جاءت بعد نحو من اثنتين وعشرين سنة أى فى عام ٣٣ فى مجلة الثقافة التى كان يصدرها أربعة من مفكرينا : خليل مردم بك ، وجميل صليبا ، والداغستانى ، وكامل عياد .. بعنوان : « أنشودة الحرب » للشاعر آرنت . هذه مقدمتها : « على أثر حروب نابليون بونابرت قامت فى الأدب الألمانى نزعة وطنية شديدة شبت فى الألمان روح الحماسة والحمية فقويت بها فكرة الوحدة القومية . وقامت حركة تحرير ألمانية . واليوم ننشر ترجمة قصيدة عنوانها أنشودة الحرب للشاعر آرنت (١٧٦٩ — ١٨٦٠) المعدود من أكبر شعراء الحرب فى العالم وذلك بمناسبة النزعة الوطنية المحتدمة فى ألمانيا فى أيامنا هذه ورجوع الشبيبة الألمانية إلى إنشاد هذه القصيدة وأمثالها » .

وما أشك فى أن الأستاذ التنوخى ترجم القصيدة عن أصل فرنسى وإن لم يشر إلى ذلك .

هذا الحرص على الترجمة وترجمة للشعر بالشعر ماذا يحمل وراءه من دلالات ؟

وأحسب أنى لا أعدو الواقع إن قلت إنه لون من المزاوجة التى كان يحرص عليها أكثرة من رجال الأدب والفكر عندنا .. لعلهم أحسوا تحت ضغط السيطرة الأجنبية الفكرية والمادية أنه لا بد من هذه المزاوجة ؛ فلجأ إليها كثرة كاثرة

(١) مجلة الرابطة الأدبية الجزء الأول من المجلد الأول .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وكان لكل فى ذلك طريق ، وكان لكل فى ذلك مقتبس .. بعض كان يعرف الإنكليزية وينهل منها ، وبعض عرف الفرنسية ودار حولها ، ولكنهم كانوا ، فيما بدا لى ، حراصاً على أن يظهر ذلك فى آثارهم — وكأنما كان ذلك نوعاً من البدع أو نوعاً من التعويض ... لا أدرى كيف أختار الكلمة .

ولم يقتصر الأستاذ التنوخى فى الترجمة الشعرية على القصائد فحسب وإنما تعداها أحياناً إلى بعض الأقوال التى شاعت فى الأدب الفرنسى فأقحمها فى بعض مقالاته نثراً أو نظماً . وقد نظمت أنا هذا المعنى .

ومهما يكن من أمر هذه الظاهرة فالمؤكد أنها تقف واحدة من أبرز الظواهر فى نتاج التنوخى الشعرى وتضاف بوجه من وجوهها إلى جانب آخر من البحث الذى يستحق أن يتناول تناولا خاصاً عن التنوخى المترجم » .. وقد عرفناه مترجماً فى كتاب قلب الطفل وفى كتاب مبادىء الفيزياء .

وإن ذلك لنحو من الحديث لا يتسع له هذا الحيز الضيق .

* * *

لقد كان فيما قدمت أن التنوخى الأديب يتمثل فى شعره وفى أبحاثه الأدبية ، أما النثر فلم أقع له على نثر فنى صرف يستوقفنى .. ولكن الروح الأدبية عند التنوخى كعروق الذهب التى تمتد هنا وهناك فى الصخر تزينه وتبهرجه وتلقى عليه الألق والرواء .. إنها يمكن أن تلتمس فى مقدمات كتبه وفى تعليقاته ، كما تلتمس فى شعره وأبحاثه.. هى فى شعره وأبحاثه منجم ، حيث يختلط التراب بالذهب ويحتاج الأمر إلى تصفيته ، وهى فى أعماله الأخرى هذه العروق المتشعبة التى تزين ترجماته وتعليقاته ...

* * *

لقد تحدثت عن التنوخى الأديب الذى يحسن الشعر ويجيد النثر ، ويتقن المحاضرة ويزين البحث . ولكنى أغفلت الأدب الآخر أدب النفس .. وقفت هذه الوقفة الطويلة عند أدب الدرس أما أدب النفس الذى هو تتويج لأدب

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

الدرس فقد كان نبضة حية فى صدر الأستاذ التنوخى وكان نوراً نيراً فى وجهه وسلوكاً واضحاً فى سلوكه .. كان من أطيب الناس معشراً وأصفاهم خلقاً ، وأبعدهم عن كثير من تعقيدات الحياة المعاصرة . . كان إلى البساطة فى بعض المواقف أقرب منه إلى أى شىء آخر .. ولم يكن ذلك عن إغفال ولكنه كان عن تغليب الخير ومحبة الأخيار ومجانبة الشر ومباعدة الأشرار .. كان إذا سئل أجاب فوق ما يريد السائل ، وإذا استفتى أفتى فوق ما تحتاج الفتيا . . كان حريصاً على العلم أن يذاع ، وعلى اللغة أن تقرب ، ولذلك كان كثيراً ما يسوقه اندفاعه هذا وحبه أن يخوض فى الحديث فيسرف فيه ويتابعه كأنما كان يريد أن يلقى فى نفوس مستمعيه كل ما عنده .. ألم يكن من هذه البقية الصالحة التى تؤمن أن العلم فى أعناقنا أمانة وأن نشر هذا العلم على الناس فريضة ؟

تمنيت لو تحدثت عن ملامح أخرى من أدب النفس عند التنوخى .. عن تواضعه واستواء خلقه ..

ولست أنسى أياماً من الطفولة كنت أصحب فيها حلقة من حلقات الدمشقيين على رأسها محدث الشام خالى المرحوم محمود ياسين وكانت هذه الحلقة تقضى أياماً من أيام العطل فى متنزه العين الخضراء حين كانت العين الخضراء أرضاً عذراء لم تمتد إليها يد بتشذيب أو تهذيب أو تزيين ، فكنا نرد العين فى ساعات ونصعد الجبل حولها من هنا وهناك ساعات . . وبين أيدينا دواوين وكتب بعضها محدث وبعضها قديم . . وكان التنوخى ، بما وهبه الله من قوة الحافظة وسعة الرواية ، يغنى عن الكتاب فإذا آثر الراحة من الحديث — وقلما يفعل — لجأ يستمع . . فكان يطلب إلى أن أقرأ وكان يقيم أودى ويصون لسانى . . فتركت جلساته هذه فى نفسى أثراً لا يمحى . . حتى إذا استدارت أيام ، وانطوت سنون ، وشرقت وغربت ، واغتربت وعدت ، كان من وفاء المرحوم التنوخى وملاطفته أن يحدثنى عن هذه الجلسات الممتعة وأن يشيد بصاحبها — رحمه الله أوسع رحمة — يذكره بالخير ويثنى عليه أطيب الثناء .

* * *

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

لقد كانت حياة التنوخى الأدبية حياة حافلة وإنها من الحفل بحيث لايتسع لها مقال واحد . ولعلى لم أفعل هنا شيئاً أكثر من أنى وضعت يدى على بعض معالم هذه الحياة . . ولعل البيئات الثقافية المتعددة فى أرجاء الوطن العربى تتضافر على عمل مشترك منظم لإنصاف التنوخى وأمثاله من هذا الجيل الذى واكبه وسبقه ، من صانعى أفكارنا ومهذبى عقولنا ومنشئى نفوسنا فتكل أمر جمع آثارهم كلها — على أنها وجه من وجوه التطور — إلى بعض الباحثين حتى لايكون كل مانفعله أمام تاريخنا ورجالنا أن نذكرهم ساعة بعد الموت ، ثم نتعاون مع مع الموت عليهم .

لقد كانت حياة التنوخى عملا متصلا ، وضرباً دائباً فى آفاق من الدراسة والتدريس والتأليف والتحقيق والترجمة والتعريب ، والتربية والإدارة والعمل الحكومى والعمل الحر...أفليس من حق هذه السيرة وأمثالها على الوطن أن تكون فى متناول أبنائه يجدون فيها نماذج الأصالة والعصامية والدؤوب والغيرة على لغة الكتاب الكريم : اللغة التى هى أنقى وأبقى ما تركت لنا الأيام بعد كل هذا التيه الطويل .

وددت لو كان ذلك ، وإنه لكائن إن شاء الله .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية